الحلقة (٢)

سوف تكون هذه الحلقة في الحديث عن أنواع النظم الإسلامية، قبل الحديث عن أنواعها أود أن أذكر بما سبقت الإشارة إليه في الحلقة السابقة لأهميته في الحديث عن النظم.

فقد أشرت إلى أن التباس قد حصل لنا في هذا العصر، فيما يتعلق بدور الدين في الحياة الاجتماعية أو صلة الدين بالنظم وبالتشريعات الاجتماعية وربما استدل البعض بقول الرسول عليه الصلاة والسلام (أنتم أعلم بأمور دنياكم) فاصلا ذلك الدليل عن غيره، أو عن سياقه، فإذا فُصل عن سياقه وأُخذ مستقلا فهو لا شك يدل على أن الدين لا شأن له بالحياة، لكن هذا الكلام غير صحيح وهذا الفهم غير مستقيم، فإن النص يجب أن يكون في إطاره، أن يكون داخل النصوص أو تفهم علاقته بالنصوص الأخرى، ومن حيث المصدر الأساسي للدين، وما يهدف إليه ونحن نعلم أن الهدف الأساس للدين هو:

أن تتحقق عبادة الله وحده {وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ (٥٦) مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ (٥٧) إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ}

فإذا كان هذا هو الهدف، فإنه يشمل الدين والدنيا لا يمكن أن يتحقق بصورة مثالية ورائعة إلا إذا انتظم مصالح العباد وأدى إلى مرضات الله عز وجل عن تصرفاتهم فيما بينهم، فليست المسألة هي علاقة بالله عز وجل، وإنما علاقات متعددة وفق ما يرضي الله سبحانه، لذا ينبغي أن يفهم هذا النص بعلاقته مع النصوص الأخرى والغاية التي جاء الدين من أجلها ولا يفهم بصفة مفردة عن غيره وعن هدف الدين الأصلي فلما قال النبي صلى الله عليه وسلم :

(أنتم أعلم بشؤون دنياكم) نعرف متى قال هذا الشيء، ولم قاله، قاله بالنسبة لتجربة بشرية عرف الإنسان من خلالها كيف يثمر النخل ثمرا طيبا، وكان النبي عليه الصلاة والسلام مر ذات يوم على رجل يلقح النخل وقال له :

(لو لم يفعل هذا لصلح) وكأنما عليه الصلاة والسلام يريد أن يُنبه القلوب إلى ما وراء الأسباب الظاهرة وهو أن كل شيء إنما يتم بإرادة الله سبحانه، فإذا شاء أجراه على غير العادة، وإذا شاء أجراه وفق العادة، وقد عُلم أن الله سبحانه وتعالى أنه يجري الأمور مجرى العادة، ولو لم تجرِ الأمور هذا المجرى، لما انتفع الناس بهذا الكون لو كان في كل مرة يتجدد في حال أخرى لما استطاع الناس الانتفاع به واحتاجوا إلى تجربة فردية لكل منهم في كل شيء يعمله، لكن من فضل الله على عباده ومن عظيم حكمته أن جعل هذا الكون منتظما بحيث أن الإنسان يسبره ويستقرئه ويستخلص معرفةً من خلالها يستثمر هذا الكون، ويدخل البيوت من أبوابها، فالنبي صلى الله عليه وسلم يعلل

أن مقتضى الحكمة أن يلقح النخل لأن هذا مجرى العادة وما تقتضيه التجربة، ولكن أراد أن يلفت القلوب من التعلق بالسبب الظاهر إلى التعلق بالله سبحانه وتعالى، ففُهِم قول النبي فهما خاطئا وظنوا أن لا داعي إلى تلقيح النخل، فتركوا النخل دون تلقيح، فلما جاء نهاية الثمر وقت صلاح التمر، جاء شيصاً غير صالح للأكل، ولما سألهم النبي صلى الله علية وسلم لماذا هذا التمر بهذا الشكل قالوا: أنت قلت (لو لم يفعل هذا لصلح) وحتى يقطع الطريق الفهم الخاطئ وضع حدا فاصلا عليه الصلاة والسلام بين ما مرده إلى التجربة وما مرده إلى الوحي، وقال فيما معناه (إذا أخبرتكم عن الله فخذوه وأنتم أعلم بشؤون دنياكم).

إذن هناك مجالان ويجب أن لا يختلطا، **المجال الأول:**

١-**المجال التشريعي**: الذي مصدره الوحي، والعقل لابد أن يهتدي بالوحي.

٢-**المجال الفني**: الذي يرجع للإنسان واكتشافاته ولما أوجده الله في هذا الكون، وجعل هذا الفاصل حتى لا يخلط المسلمون في هذه القضية، ولكن للأسف ظهر الخلط كبيرا، إما في محاولة إضفاء الدين، وأخذ التجارب من الدين أو أخذ الفني من الشرع أو العكس، رفض الشرع وبالتالي الحكم بأن التشريع يقتصر على الأمور الأخروية مما يتعلق بالعقائد أو العبادات، أما ما يتعلق بالعمل وانتظام الحياة وتوجيهها فالشرع لا شأن له بذلك!

هذا أول ما نشأ في مجتمعات أخرى حيث وجد إشكاليات أو وجد الخلط بين الدين والدنيا فأحدث هذا رد فعل لاسيما لما تقدمت العلوم والمعارف لديهم فوجدوا أهل الدين يقولون في الدنيا بشيء يخالف التجربة، ويخالف منطق العقل، فلما وجدوا ذلك وجدوا أنفسهم في حرج إما أن يقبلوا بكلام هؤلاء برغم من معارضته للمعرفة والتجربة وإما أن يقبلوه، وبالتالي يعيشوا في ضلالة وفي خلط، فكان أن اختاروا الطريق الآخر فرفضوا هذا جملة وتفصيلا وهذا هو الخطر، إما القبول المطلق أو الرفض المطلق، وكلاهما ذميم؛ فللشرع مجاله وللتجربة مجالها، وينبغي ألا يخلط بين الأمرين، فنتائج التجربة المتصلة بالإنسان يجب أن تهتدي بالوحي، ولذلك نرى ما يتعلق بالهندسة الوراثية وبعض ما يتعلق بالطب وما يتصل بمسائل التناسخ أو مسألة الأسلحة النووية ونحوها من القضايا التي تفيد البشر أو تضرهم هي نتيجة تجارب نعم، الجانب الفني قال كلمته، لكن لابد للجانب الشرعي أن يقول فيها كلمته، وحتى عند الآخرين يحتاجون إلى سن قوانين وتشريعات لكي تنظم نتائج هذه العلوم وتجاربهم وما يتصل بحياة البشر.

وإذا عُلم هذا زال الإشكال وعُرف أننا حينما نتكلم، نتكلم عن المصدر التشريعي وليس المصدر العقلي بما يتعلق بحياة الناس التي مصدرها التجربة أو العقل، إذا جانب منها هذا وجانب منها ذاك، وقد نظم الدين جهة الأمر حتى لا تختلط المفاهيم ولا تلتبس.

ننتقل حينما اتضح هذا مادام الدين وضع لتوجيه الحياة كلها فلابد أن يشتمل على نظم متعددة تكون بها قوام الحياة واستقامتها على ما يرضي الله سبحانه وتعالى ويحقق مصالح البشر، ليس المسلمين وحدهم وإنما البشر عامة، فالإسلام كما نظم حياة الفرد نظم حياة المجتمع ونظم العلاقة بين المجتمع الإنساني وأفراده أو الكيانات التي يتكون منها المجتمع الإنساني لماذا؟ لأن الإسلام لا يعمل في فراغ ولا يطالب الناس بما ليس في طاقتهم، وإنما يراعي أحوالهم وما جبلوا عليه وما فطروا عليه وما تقتضيه حياتهم وما تتطلبه وما فيهم من نوازع، وما يحدث لهم بناء على هذه النوازع من تظالم ونحوها على ما سيأتي الحديث عنه!

إذا كان النظام أو النظم في توجيه حياة الناس، بالتالي سنجد أنها في كل مجتمع من المجتمعات، سنجد أن النظم موجودة في كل مجتمع من المجتمعات، لأنه لا يمكن أن يقوم أو يتحقق مجتمع بدون نظام.

وبما أن الإسلام جاء لتوجيه حياة الناس وإسعادهم.. من الضروري ومن المنطق أن يأتي بأنظمة متعددة تشمل أوجه الحياة البشرية بحيث تغطي كل جوانبها، ولا تغفل جانباً من الجوانب... قد يقول قائل: ولكن لو استعرضنا مثلا ما يتعلق بالجانب العملي أو بالإحكام مما ورد في القرآن الكريم لوجدنا الآيات محدودة حيث لا تتجاوز ٥٠٠ آية ما يتعلق بأحكام العملية، إذا كان هذا الأمر والحياة متعددة الجوانب، والحوادث لا تتناهى تتكاثر وتحتاج إلى استجابة دائمة ودائبة ولا تقف الحياة عند مرحلة واحدة، وإنما تتطور بتطور الوسائل وبتطور المعارف و التلاقح والتجارب الإنسانية.. هذه المستجدات لابد وأن تحتاج إلى تشريعات.. فأنتم تقولون إن الإسلامي شامل لكل أوجه الحياة..

أقول: نعم! إن الإسلام قد جاء بقواعد كلية أساسية استُنبِطَت من مجموع القرآن الكريم ومن مجموع السنة المطهرة ووضعت هذه القواعد الكلية واستنبط العلماء هذه القواعد من استقراء النص القرآني ومن استقراء الحديث النبوي.. **من هذا الباب تفهم مقولة**: الإسلام شامل لجوانب الحياة كلها.

نحن الآن بصدد الحديث عن أنواع النظم، الإنسان كائن كما يقولون ديني، البعض يسمي الإنسان حيوان ناطق، لكن هذا نظروا إليه من حيث إنه كائن حي، ومن حيث أنه كائن حي متميز بالنطق مقابل هذه الحيوانات التي لا تنطق، لكن لو أسسنا على مفهومنا القرآني لم نقصر النطق على الإنسان، لكنهم حدوه وجمعوا بين جانبين فصح هذا الحد من جانب، وجمعوا بين الحياة والنطق في نطاق الكون المعروف، وهناك حيوات أخرى ليست كحياتنا، لكنها لكائنات ذكر الله عنها، ونحن نؤمن بوجودها انطلاقا مما أخبرنا الله عز وجل العليم بكل شيء.

<u>وليس مصدرنا في المعرفة هو الحس وحده</u>، حتى نقصر الكائن الحي على الحياة الطبيعية كما نشهدها، في حياة الإنسان وفي حياة الحيوان، وفي حياة النبات.. وإنما هناك حياة أخرى <u>**مثل**</u>: **الحياة النارية** للجان **والحياة النورانية** للملائكة، بل هناك حياة للكون كما في القرآن، الكون في القرآن ليس

صامتا! الكون حي عامل ناطق عابد من خلال ما نعرفه من كلام الله بل محب وله شعور النبي صلى الله عليه وسلم ذات يوم كان على جبل أحد فرجف رجفة فقال: أثبت أحد إنما عليك نبي وصديق وشهيدان، وقال بالنسبة للمشاعر من هنا أثبت وعيا لهذا الجبل ولو لم يكن واعيا من العبث مخاطبته، وحاشاه صلى عيه وسلم عن العبث، وكذلك حينما قال عليه الصلاة والسلام (أُحد جبل يحبنا ونحبه) وفي القرآن الكريم: {فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ} (٢٩)

لا نريد أن نقول إن هذا من قبيل المجازات، ونحوها نحن نقول أن هناك حقائق غيبية قد لا نراها وهناك حقائق حسية إذا كان يريد أن يحاكم النص على مستوى الحس فإن التجربة على مستوى الإنسان تعتبر مجازا، ولكن بالنسبة للخلق كما أوجده الله عز وجل هي حقيقة لا ندركها، وإن كان العلم بدأ يتوصل على بعض هذه الحقائق كأن النبات له مشاعر بحيث يتأثر بالألم إذا أزيل شيء من أغصانه أو أزيلت شجرة من جانب شجرة أخرى فقد تتأثر الشجرة التي مازالت بمكانها، هذا جانب آخر، والعلم الآن يشهد بهذه الحقيقة، التي غير مداركه بالنسبة لمستوانا لأننا نحن نعي في نطاق معين، فبصرنا بين حدود معينة، وليس كل ما لا نبصره، هو غير موجود، الأمر الآخر.

كذلك السمع ونحو ذلك -ولا نريد أن سنطرد كثيرا في هذه القضايا- لكن لأهمتها في توسيع الوعي، الوعي مصيبته أنه أحيانا يحدد بالمادة، وإذا حدد بالمادة،لم يفهم خارج نطاق المادة ولكن الوعي يمكن أن يكون أوسع نطاقا، لاسيما إذا استخدم الإنسان خياله، فيمكن أن يستوعب الكثير مما جاء به الدين بعد أن آمن به إيماناً لاشك أن الأساس هو الإيمان لكن العمل يثمر صفاء في قلب الإنسان فيدرك ويصل إلى معرفة أوسع وأعمق مما يصل إليه إذا حصر نفسه في المجال المادي، لذلك بين الله عز وجل الفرق بين المؤمن وغيره في فهم القرآن قال تعالى: {وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى}

وفي بداية سورة البقرة: {هُدًى لِلْمُتَّقِينَ} فهنا إذن الإيمان له دور والتقوى لها دور في اتساع الوعي وإدراك الأمور التي قد لا يدركها الإنسان بحسه القريب.

تذكير بما تمت مناقشته:

- إزالة شبهة الاختلاط بين مفهوم ما مصدره التجربة الإنسانية و ما مصدره الشرع.
- سبب التفريق بين الديني و الدنيوي التي لها صدى في الفكر الحديث.
- النظم أنه أمر طبيعي أن يكون الدين شاملاً لشؤون الحياة.
- نظم الإسلام من حيث شمولها وأسباب هذا الشمول؛ ومصدره وكيف يتأتى.